

الرجز والشعر وهو قفا القدماء منهما

د. مصطفى الجوزو

لئن كان التفريق بين الشعر والعلم مما لا يبهظ النفس، ولا يرهقها من أمرها عسراً، سواء أكان هذا التفريق عفويّاً مبهماً، أم كان تفريقاً بين الشعراء والعلماء، أم بين التخيل والبرهان، أم بين المعاني الشعرية والمعاني العلمية، أم بين الهيئّة النفسية والقوانين القياسية، فإن التفريق بين الشعر والرجز ليبذو بحقّ نوعاً من ركوب الصعب أو طلب المحال لأنهما، إن لم يكونا معدّناً واحداً والعلاقة بينهما علاقة اشتتال أو علاقة بين الجنس والنوع، فهما من حقل واحد وبينهما صلة قريّة وطيدة هي: الأبوة في رأي، والأخوة في رأي آخر. ولهذا لا غرو أن يتردد اللغويون والنقاد في الفصل بينهما، أو في نفي الشعرية عن الرجز.

ونحن نطأ ابتداءً من تجوّر جرى عليه عدد غير يسير من الباحثين، ولا سيما المستشرقين، وهو أنهم عاجلوا الرجز على أنّه بحر شعري وحسب، مع أن الغالب على اصطلاح القدماء، هو أن الرجز نوع من النظم قيده القافية وحسب، ويتبلّ عدداً من مجرّ الشعر ولا سيما البحر المسمّى باسمه. وآية ذلك ما ذكره ابن اسحاق عن بناء مسجد المدينة وارتجاز المسلمين وهم يبنونه:

لا عيش إلّا عيش الآخرة اللهم ارحم الأنصار والمهاجرة

وهو كلام غير موزون. صحيح أن ابن هشام علق عليه بقوله: «هذا كلام وليس برجز»^(١)، إلّا أنّنا نغلب إلى الأخذ بها هنا برواية ابن اسحاق، لأن ابن هشام متأثر على ما يبدو بعلم العروض أكثر مما هو حريص على صحة الرواية، ولأنهم نسبوا إلى النبي حديثاً يقول: «من قرأ القرآن في أقلّ من ثلاث فهو راجز»^(٢). يعني أن الرجز نوع من الأداء متصل بنوع من النظم، ذلك أن ابن منظور علّل الحديث المذكور بأن الرجز أخفّ

على لسان المنشد واللسان به أسرع من القصيد.

ولهذا فنحن نتحفظ إزاء بعض اللغويين الذين زعموا أنَّ الرجز سمي كذلك تشبيهاً له بحركة رجل الناقة ورعنتها، أي دليلاً على اضطراب أجزائه، أو جاء اسمه من داءٍ يصيب الإبل في أعجازها، دليلاً على عيب فيه، ولا سيما سقوط عجزه^(٣)، بل إننا نميل إلى الظنِّ أنَّ الرجز يعني ارتفاع الصوت بإيقاعٍ خفيفٍ سريع، والشاهد على ذلك ما قدّمنا منذ قليل، ثم الاستعمال اللغوي لارتجز، ورجزاً وارتجز بمعنى. فالارتجاز هو «صوت الرعد المتدارك». والمرتجز اسم فرس «الرسول» سمي بذلك لجهارته صهيله وحسنه. «هذا ما نخذه في المعاجم ولا سيما لسان العرب. وهو يسمح بالاستنتاج أنَّ الرجز يعني تنابع الصوت بفضل القافية المتكررة والجهاره والحسن، أي هو، بقول آخر، غناء بدائي بكلام مقفى متتابع، لأن الغناء في الجاهلية كان يعني ارتفاع الصوت وامتداده وتواليه. فلا غرو أن يقول الأخفش: «الرجز عند العرب كل ما كان على ثلاثة أجزاء، وهو الذي يترغون به في عملهم وسوقهم ويجدون به»^(٤).

والأخبار تؤيد ذلك، ومنها أنَّ الأغلب العجلي (ت ٢١ هـ / ٦٤٢ م) كانت له «سرحة (شجرة كبيرة) يصعد عليها ثم يرتجز»^(٥)؛ فكأنما هو يريد أن يبتعد عن السامعين فيتاج له أن يرفع صوته ويطيله، أو يضطر إلى ذلك.

وتؤيده كذلك الأوقات والأغراض التي كان يقال فيها الرجز، فهي في غالبيتها العظمى ترتبط بالصراخ والغناء، فمن ذلك النزال في الحرب إذ يصيح الفارس متحدياً ومفتخراً أو محمّساً أقرانه، أو تحرض النساء المقاتلين على الإقدام، ومن ذلك الغناء عند سقي الإبل أو استخراج ماء البئر، والحداء، وترقيص الأطفال، ومن ذلك أخيراً التعاويذ والرُقى والأحاجي ومجاثاة الخصم (الجلوس على الركبتين للخصومة) والمجادلة والمحاورة^(٦).

ولا ريب أنَّ جلَّ هذه الأمور يقتضي مع الصياح أو الغناء، الارتجال. ومن أجل هذا لحظَ بروكلمان أنَّ الرجز كان يلي هذه الحاجة^(٧).

ومنذ القديم انتبه ابن رشيّق (ت ٤٥٦ هـ) إلى الفرق بين الرجز وبجره، فأشار إلى أن بعض القصائد ليست من بحر الرجز وسميت مع ذلك رجزاً بسبب تصريح جميع أبياتها، مثل قصائد نظمت على مشطور السريع، أي على شطرٍ واحدٍ من ذلك البحر، وعلى البسيط، وعلى منهوك المنسرح، أي على ثلث وزنه^(٨)، فخصَّ الرجز بمزية التصريح وحسب.

وقد ظنَّ الدكتور محمد سليم الجندي أنَّ أبا العلاء المعري (ت ٤٤٩ هـ) انتبه إلى صفتين أساسيتين أخريين في الرجز وهما قلة الحروف وقصر الأبيات^(٩) (بكسر القاف وفتح الصاد) اللتين تؤديان إلى الخفة والسرعة، ولكننا نرى أنَّ كلام المعري لا يستشف منه هذا المعنى بالضرورة. وهكذا يكون الرجز، على

الأقل في العصر الجاهلي . هو الشعر المرحّل الذي يُؤدّى بكلامٍ قصير متوالي القافية ، وبصوت رفيع هو ، غالباً ، الغناء البدائي .

وقد عرض القدماء للصورة الكلامية للرجز فأكدوا أنّه أنصاف أبياتٍ (أي مشطور) أو أثلاثها (أي منهوك) أو كل ما كان على ثلاثة أجزاء (مقفأة بالطبع) أو هو صدور بلا أعجاز^(١٠) (أي مشطور) بمعنى أنّ الراجز يقول صدرّاً من بيت ويختار له قافيةً ثم يهمل العجز ، وإذا قبلنا هذا الأسلوب من التصور فإن من المحقق أن عكس كلام القدماء هو الصحيح لأن العجز هو الذي يقتضي القافية لا الصدر .

هذه الصورة الكلامية تسمح . على كل حال ، بإدخال جميع الأوزان في حيز الرجز على أن تنطبق عليها الشروط المذكورة . ولعلّ هذا ما بعث عثمان بن جني الموصلي (ت ٣٩٢ هـ) على أن يعد كل شعر تركّب تركيب الرجز رجزاً . وأن يكتفي أبو العلاء المعري بشرط واحد لتعد التلبية الموزونة رجزاً ، وهو أن يكون البيت منهوكاً أو مشطوراً . وقد أوضح المعري أن المنهوك إما أن يكون رجزاً أو منسرحاً ، والمشطور لا بد أن يكون رجزاً سريعاً . علماً بأن التلبية الموزونة يجب أن تكون في رأيه من الرجز دائماً . وهكذا يمكن أن يدخل في الرجز الوزن المسمّى باسمه . ووزن المنسرح والسريع ، فأبو العلاء قريب في هذا الرأي من ابن رشيّق . أو ابن رشيّق قريب منه على الأصح . مع أنّ شيخ المعرة لم يشترط التصريح بدليل أنه يستشهد بتلبيات موزونة مختلفة القوافي^(١١) .

ويبدو أنّ سبب التوسع في معنى الرجز هو أن القدماء كانوا يعاملونه معاملة السجع^(١٢) ، الأمر الذي حمل بروكلمان . في العصر الحديث . على الظن أن السجع ترقّى إلى بحر الرجز^(١٣) ، وحمل محمد محمد حسين على القول بأن الرجز كمال السجع^(١٤) . وأدى محمد عوني عبد الرؤوف إلى الاعتقاد أن الرجز تطور ، تحديداً ، عن الأسجاع المنبورة والحداء والتلبية^(١٥) . وهذان الأخيران مسجوعان في العادة . فإذا كان مصدر الرجز هو السجع ، وإذا كان السجع لا يتزن إلا اتفاقاً ، كان لنا أن نستنتج أن ابتداء الرجز لا بد أن يكون على أكثر من وزن .

ومع ذلك فقد تكلم نفر من القدماء على الرجز ، وكأنهم يريدون بجره لكن كلامهم لم يخل من اضطراب وغموض ، فأشار بعضهم إلى أن ابتداء أجزائه سببان (السبب حرفان) ثم وتد (أي ثلاثة أحرف) ، يقصدون وزن « مستفعلن » المكرر ، وأوهم بعضهم الآخر أن الوزن المقصود هو المتدارك المشعث ، لزعهم أن الحركة والسكون تتواليان فيه^(١٦) . بل إن بعضاً ثالثاً يصرح باسم البحر فيشير إلى مشطور الرجز ومنهوكه^(١٧) .

يتضح من ذلك كله أنهم كانوا يعنون بالشكل اللفظي للرجز من حيث الشطر والوزن والقافية دون التصدي لا لنهج التأليف ولا للصورة الفنية ، علماً بأن نهج بعض الأراجيز الإسلامية ، كأراجيز الشماخ بن ضرار المازني (ت ٢٢ هـ) المعاصر للأغلب العجلي ، يشبه ما عدّ منهجاً تقليدياً للقصيد العربية من ذكر

للسبب ، ووصف للرحلة^(١٨) . بل إن الأراجيز في العصور اللاحقة ولا سيما العصور العباسية أصبحت كالقصيدة في نهجها ، وأوضح شاهد على ذلك أرجوزة بشار التي يهجو فيها عقبة بن ربيعة ، فهو يقف فيها على الطلل ثم يتذكر دعداً وأتراها وجهه لها ثم يضي إلى المهجو^(١٩) .

وإذا اكتفى النقاد بالجانب العروضي من الرجز فلأن النظرة السائدة عند القدماء هي (الجعفرية القديمة) التي تهتم للعروض أكثر من الاهتمام للصورة الشعرية . والواقع أننا لو حاولنا أن نعرض الرجز على تعريف قدامة لوجدنا أنه شعر لأنه موزون مقفى دال على معنى ومع ذلك فهو « ليس بشعر عند أكثرهم » كما يصرح ابن منظور^(٢٠) . والمراد بأكثرهم ها هنا اللغويون والعروضيون ، فلماذا؟

إن السبب الظاهر الذي دفع الكثرة إلى إخراج الرجز من مملكة الشعر هو الكمية لا الكيفية ، بمعنى أنهم وضعوه بإزاء القريض والقصيد اللذين يمثلان الشعر الحقيقي في رأيهم ، ونفوه عنهما .

لقد فرقوا بين الرجز والقريض استناداً إلى الأغلب العجلي ، الشاعر المخضرم ، الذي قيل إنه أول من أطلال الرجز ، مستشهدين بقوله :

« أَرْجَزاً تريد أم قريضاً كليهما أجيد مستريضا » ، أو فرقوا بين الرجز والقصيد اعتماداً على الشاعر نفسه ، مستشهدين قولاً آخر له :

« لقد سألت هيناً موجوداً

أرجزاً تريد أم قصيدا »^(٢١) .

على أن آثار الوضع ظاهرة على هذين البيتين لا سيما وأن الثاني منهما يُروى مقلوباً ، أي أن قسيمه الأول يصبح الثاني والعكس ، ونكاد نوقن أن غاية الرواة من ذلك كله هي نفي الشعرية عن الرجز ، وحسبك أنهم عرفوا القريض بالنفي - وهو تعريف غير مقبول عند أهل المنطق - فالنحاس (لعله أبو جعفر المفسر والأديب المصري (ت ٣٣٨ هـ) الذي كان من نظراء نفطويه وابن الأنباري ، وصنف كتباً عدة في القرآن واللغة ومن مؤلفاته « شرح المعلقات السبع » . يقول : « القريض عند أهل اللغة : الشعر الذي ليس برجز ، ويكون مشتقاً من قرض الشيء : أي قطعه ، كأنه قطع جنساً » . وأبو إسحاق (ولعله إبراهيم بن إسحاق الحارثي (١٩٨ - ٢٨٥ هـ) الذي كان من أعلام المحدثين وقد تفقه على الإمام أحمد ابن حنبل ، وصنف كتباً كثيرة في الحديث والأخلاق والعبادات ، وكان قياً في الأدب) يقول : « وهو مشتق من القرض ، أي القطع والتفرقة بين الأشياء ، وكأنه ترك الرجز وقطعه من شعره » .

بل إنهم ليضيفون إلى الوليد بن المغيرة ، في الجاهلية ، كلاماً على القرآن يقول فيه : « لقد عرفنا الشعر كله : رجزه وهزجه وقريضه ، ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو بالشعر »^(٢٢) . أي أن المغيرة لا يميز الرجز من القريض وحسب ، بل يميز منه الهزج أيضاً ، لكنه مع ذلك يجعل كل هذه الأنواع الثلاثة من جنس الشعر ،

وهذا يتناقض مع رأي النحاس ومع ذهاب اللغويين إلى أن القريض مرادف للشعر^(٢٤).

فتمييز الرجز من القريض يبدو مفتعلاً وتحكيمياً ، ذلك أن اللغويين حين أرادوا أن يعادوا بين الرجز والشعر اخترعوا ، أغلب الظن ، أبياتاً تخدم خطتهم ، لكن هذه الأبيات فضحتهم لأنهم تلاعبوا بها تلاعباً لا يخفى على ذي عقل ، ثم استخدموا معنى القطع في كلمة « قرض » لجعلوا القريض يجد الشعر ، أو يقطع الرجز عنه ، حتى إذا اراد الرواة أن يتحدثوا بمعجزة القرآن الكريم ينقلون عن أحد خصوم النبي كلاماً يخالف ما ذهب إليه اللغويون ، ومؤداه أن الرجز أحد أنواع الشعر التي لا يشبهها كلام القرآن .

فنحن إذن لا نستطيع أن نأخذ بذلك التمييز ، بل نغفل إلى الظن أن القرض الذي اشتق منه القريض ، يعني تقطيع الكلام على قد الوزن العروضي ، وهو ينطبق على الرجز وعلى غيره من أغاظ الشعر ، ثم إنه أخيراً مصطلح متأخر ، في أغلب الظن ، ابتدعه الأمويون أو العباسيون للدلالة على الشكل الشعري الذي لم يلبث الحليل أن انتظمه في قوانين .

لكن ما الفرق ، عندهم ، بين الرجز والقصيد ؟

في التفريق بين الرجز والقصيد يضيفون للقصيد صفتين مخالفتين جوهرياً لصفات الرجز في صورته الأولى . هاتان الصفتان هما الطول وقام البيت .

فأما الصفة الأولى فيؤكدها قول ابن قتيبة في الأغلب العجلي : « هو أول من شبه الرجز بالقصيد وأطاله ، وكان الرجز قبله إنما يقول الرجل منه البيتين أو الثلاثة »^(٢٥) ؛ لكن أبا الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦) ينسب إلى محمد بن حبيب (ت ٢٤٥) ، وكان علامة بالأنساب والأخبار واللغة والشعر وأشهر كتبه « المحبر » ، أن الأغلب كان « أول من قصّد الرجز ثم سلك الناس بعده طريقته » ، مما يعني أن الرجز يحتل أن يصير قصيداً . لأجل هذا رفض ابن رشيقي (٤٥٦ هـ) التمييز بين الرجز والقصيد بالطول ، راثياً أن ما كثرت أبياته من مشطور الرجز ومنهوكه ليس يمتنع أن يسمى قصيدة « لأن اشتقاق القصيد من قصدت إلى الشيء ، كأن الشاعر قصد إلى عملها على تلك الهيئة ، والرجز مقصود أيضاً عمله كذلك »^(٢٦) .

فليس المعول ، عنده ، على الطول في تسمية الأرجوزة قصيدة ، بل أن تكون من أحد الأبحر التي ذكرها ، نعني مشطور السريع والبسيط ومنهوك المنسرح « فالقصيد يطلق على كل الرجز وليس الرجز مطلقاً على كل قصيد أشبه الرجز في الشطر » . وبالتالي فالرجز قصيد ، لكن التصريح ليس شرطاً كافياً له ، بل ينبغي أن يكون من أبحر بعينها مزيداً عليها بحر الرجز بالتأكيد .

وهو مع ذلك يذكر رأي مجهولين في وجوب أن يكون عدد أبيات القصيد ما بين السبعة إلى العشرة على الأقل^(٢٨) .

والظاهر أن إيجاب شرط الطول أو شرط النية الذي فرضه ابن رشيقي وغيره ، ينطلق من موقف دفاعي

يراد به نفى الشاعرية عن النبي والشعرية عن القرآن الكريم . والمعروف أن احمد بن فارس (ت ٣٩٥ هـ) اشترط أن يكون الشعر أكثر من بيت تزيهاً للنبي عن الشعر . ونسب ابن منظور للخليل بن أحمد أنه « لو جاز أن يقال لنصف البيت شعر لقليل لجزء منه شعر ، وقد جرى على لسان النبي صلى الله عليه وسلم :

أنا النبي لا كذب
أنا ابن عبد المطلب

فلو كان شعراً لم يجر على لسان النبي لقوله تعالى : « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » (٢١)

ونفى ابن رشيقي الشعرية عن قول الرسول :

هل انت إلا إصبع دमित

وفي سبيل الله ما لقيت

لعدم القصد والنية لا لسبب آخر (٢٢).

هذا يوصلنا إلى السبب الثاني الذي لأجله فرقوا بين الرجز والقصيد وهو تمام البيت الشعري ، أي أن يكون مؤلفاً من شطرين كاملين : صدر وعجز (٢٣) ، خلافاً للرجز الذي هو إما مشطور أو منهوك ، وقد لمحنا هذا الشرط في ما سقناه عن الخليل بن أحمد في الأسطر السابقة .

ولا ريب أن هذا الموقف الدفاعي هو بمنزلة عن جوهر الشعر ، واللافت أن أكثر النقاد واللغويين فرقوا بين الرجز والقصيد لا بينه وبين القصيدة غالباً ، مع أن الاستعمال الشائع في التراجم والروايات هو « قصيدة » ولا نقع على مصطلح « قصيد » إلا في كتب النقد والمعاجم . ومن عجب أنهم ينسبون إلى ابن جني أنه قال : « وربما قالوا قصيدة » كأن هذه الكلمة هي الأقل شيوعاً ، كما ينسبون إلى الجوهري أن « القصيد جمع قصيدة كسفين جمع سفينة » مع أنهم يعاملون الكلمة معاملة المفرد المذكر ، كما يزعمون أن أصل الكلمة من القصيد الذي هو مخ العظم ، إلى آخر ما هنالك من شروح متضاربة لا تبعث على الثقة ، بل على الظن بأن الشراح اتخذوا الرواية التي تجعل الأغلب العجلى يفرق بين الرجز والقصيد مرجعاً ، مع أن الشاعر ، سواء أكان الأغلب أو بعض الناحلين ، ربما رخم كلمة قصيدة لا أكثر .

وبكلمة لقد اضطرب اللغويون والنقاد أيما اضطراب بسبب الرأي المسبق النابع من عوامل دينية لا نقدية ، ولذلك حاروا : أيعدون الرجز شعراً أم لا ؟

ففي رواية أن الخليل ينفي أن يكون الرجز شعراً ، وفي أخرى نراه يؤكد أنه شعر صحيح ، وفي ثالثة يخرج مشطور بحر الرجز ومنهوكه من الشعر ، ثم نكتشف أن الأخفش يدفع رأي الخليل في أن الرجز شعر صحيح (الرواية الثانية) قائلاً إنه ليس كذلك وأنه ، أي الأخفش ، هو نفسه الذي ألزم الخليل ذلك الوهم (٢٤) !!

ويسأل قوم يونس بن حبيب النحوي (٩٤-١٨٢ هـ) عن أشعر الناس فيقول: «العجاج ورؤية» وكلاهما راجز على ما هو معروف، فيستدرك السائلون: «لم نعن الرجاز!» فيجيبهم: «هما أشعر من أهل القصيد. إنما الشعر كلام فأجوده أشعره» (٣٣).

موقف يونس هذا يبدو من المواقف المميزة والنادرة لأن العرب القدماء كانوا أميل إلى احتقار الرجز، لأنه فيما يخيل إلينا شعر شعبي لا أدب نبيل، وحسبك ما يقوله الباقلاني فيه: «وأما الرجز فإنه يعرض في كلام العوام كثيراً» (٣٤) وهذا أبو حاتم السجستاني (ت ٢٤٨ هـ) يسأل الأصمعي (ت ٢١٠ هـ) عن الأغلب العجلى «أفحل هو أم من الرجاز؟» فيجيب الأصمعي: «ليس هو بفحل ولا مفلح (...) وأعياني شعره» (٣٥). والمعروف أن محمد بن سلام الجمحي (ت ٢٣٢ هـ) يضع الرجاز في الطبقة التاسعة، أي قبل الأخيرة، من الإسلاميين. أما أبو العلاء المعري (ت ٤٢٩ هـ) فقد بدا كارهاً للرجز مزدرياً له فهو مرة يراه شعراً أو قريضاً لكن ضعيفاً أو سفافاً (٣٦)، ومرة يفضل بينه وبين الشعر أو القريض باحتقار، فيقول في (الفصول والغايات): «والرجز أخفض طبقة من الشعر»، حتى يروى عن الفرزدق أنه قال: «إنني لأرى طرفة الرجز ولكني أرفع نفسي عنه» ويؤكد هذا المعنى في لزومياته مشيراً إلى عجز الرجاز عن بلوغ رتبة الشاعر، وعجز الرجز عن اللحاق بالقصائد، وهو فضلاً عن ذلك، ينسب إلى ابن القارح أنه قال لرؤية بن العجاج: «لو نسك رجزك ورجز أبيك لم تخرج منه قصيدة مستحسنة» ويتبنى أخيراً الرأي القائل بأن الرجز ليس شعراً (٣٧).

أما المعتدلون فيميزون الرجز من الشعر دون الخط من قدر أي منهما. الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ)، مثلاً، يفرق بين القريض والرجز دون أن ينفي الشعرية عن أي منهما، فكلاهما عنده شعر. يقول: «ومن الشعراء من يحكم القريض ولا يحسن من الرجز شيئاً» (٣٨). والمرزوقي (ت ٤٢١ هـ) يكاد يذهب المذهب نفسه جاعلاً الرجز والقصيد من وادٍ واحد، ورائياً أن الخلاف بينهما خلاف قريب يرجع «إلى تقطيع شأو اللفظ فيه، وتراحم السجع عليه» وأن الجامعين بين الاثنين قليل (٣٩). وابن جني (ت ٣٩٢ هـ) يرى أن اسم الرجز يمكن أن يطلق على كل شعر تركيب الرجز (٤٠).

ويحاول محمد بن الطيب الباقلاني (٣٣٨ - ٤٠٢ هـ) القاضي، وصاحب كتاب «إعجاز القرآن» و«الإنصاف» وغيرهما، أن يكون حيادياً، كمادة القضاة، فينسب القول في الرجز إلى غيره، مع أنه أشار إلى شيوعه على ألسنة العامة، فينقل رأيين لجهولين الأول: «أن الرجز ليس بشعر أصلاً، ولا سيما إذا كان مشهوراً أو منهوكاً، وكذلك ما كان يقاربه في قلة الأجزاء» وهذا الرأي في غاية التشدد كما هو واضح لأنه لا ينفي الشعرية عن الرجز وحسب، بل عما يشبهه أيضاً، جاعلاً قلة الأجزاء نقيض الشعر.

والثاني: أن أقل ما يكون من الرجز شعراً «أربعة أبيات بعد أن تتفق قوافيها». أي أنه يضع شرطاً واحداً لشعرية الرجز هو عدد الأبيات (٤١).

لكن من النقاد من انتصر للرجز ، ولا سيما ابن رشيق الذي رأى أن الرجاز شعراء وإن كان اسم الشاعر بالقصّد ، أي مؤلف القصيدة « أعلق وعليه أوقع ، فقليل لهذا شاعر ، ولذلك راجز ، كأنه بشاعر كما يقال خطيب أو مرسل أو نحو ذلك » ، وهو يبدو موافقاً المرزوقي في أن الذين يجمعون بين الرجز والقصيد قليل ، لكنه يزيد أن أحدهم « إن جمعهما كان نهاية ، نحو أبي النجم ، فإنه كان يقصد ، وغيلان (أي « ذو الرمة ») ، فإنه كان راجزاً ثم صار إلى القصيد »^(٤٣) . بل هناك رتبة أعلى من كل ذلك في اعتقاده ، هي رتبة الكامل ويعني به الشاعر الذي يقطع (يكتب القصائد القصار) ويرجز « وقد جمع ذلك كله الفرزدق ، ومن المحدثين أبو نواس »^(٤٤) .

فالرجز إذن دليل على مقدرة شعرية ترفع صاحبها ولا تحفضه .

ومن الشعراء من عدّ الرجز مفخرة ومزية ، كعقبة بن ربيعة الذي سمعه بشار بن برد (٩٥-١٦٧ هـ) ينشد رجزاً عند عقبة بن سلم والي البصرة من قبل أبي جعفر المنصور « فجعل يستحسن ما قاله الى أن فرغ » فأصاب الغرور عقبة الشاعر وحمله على أن يقول لبشار :

« هذا طراز لا تحسنه أنت يا أبا معاذ » . فأجابه بشار :

« إلي يقال هذا؟ أنا والله أرجز منك ومن أبيك وجدك »

فقال له عقبة : « أنا والله وأبي فتحنا للناس باب الغريب وباب الرجز ، والله إني لخليق أن أسده عليهم » فقال بشار ساخراً : « إرحمهم رحمك الله ، ثم غدا على عقبة بن سلم وعنده عقبة بن ربيعة بأرجوزته التي أولها :

يا طلل الحي بذات الصمد بالله خير كيف كنت بعدي^(٤٥) .

وفي العصر الحديث لحقت نفرأ من المستشرقين عدوى احتقار الرجز فَعَلَّوْا أكثر من بعض القدماء . ففي حين نجد أن اللغويين أكثروا قديماً من الاستشهاد بالرجز ، بغض النظر عن قيمته الشعرية ، فكانت شواهدهم أكثر من شواهد الشعر الأخرى ، إذا بعالم مثل أولمان يرى أن الرجز أدب شاذ ، وأن القواعد والنظريات اللغوية العربية نشأت ، بسبب ذلك ، عن شيء لا قيمة له ، و« الصورة التي يعرضونها للغة العربية في أعلى درجاتها صورة مهزوزة » . لكن الدكتور محمد عوني عبد الرؤوف يبدو كالمستدرك على هذا الرأي حين يقرر « أن ما وصل إلينا من رجز ، ما قبل الاسلام ، لا يمثل بالضرورة جيد شعر الرجز ، بقدر ما يمثل غرابية اللغة والنحو أو الاستعمال الشاذ لهما » ، لأن أكثر ما نقله اللغويون كان من رجز البدو والأعراب « يشيرهم الغريب من اللغة ويجذبهم »^(٤٦) .

ومثل أولمان ، نرى نولدكه لا يعبأ بالقيمة الشعرية للرجز ويحذر من الاستعانة « بـرجز المتأخرين في

القواعد النحوية والمعجمات اللغوية « مشيراً إلى أن مثل هذه الأراجيز ليست مصادر أصلية للغة الحقيقية إذ أنها قلما ترقى لمنزلة القصيدة . وقد أهمل عدد من المستشرقين الرجز ، ولا سيما رجز العجاج ورؤية في كتبهم النحوية ومعاجهم وتواريخهم الأدبية^(٤٩) .

المهم أن احتقار الرجز أعم من الحياد بإزائه بل الانتصار له ، والسبب في ذلك ديني من ناحية وفي من ناحية أخرى ، ويتجلى الجانب الفني في أن الرجز عدّ نوعاً بدائياً مرتجلاً ، لا سيما في العصر الجاهلي ، يقابله شعر الفحول أو الشعر المنقح المجهود المذهب^(٥٠) . وقد تبينا منذ قليل كيف أن الأصمعي نفى الفحولة عن الأغلب العجلي الراجز ، أي نفى عن شعره العظمة والنبيل والقوة والتفرد والغلبة ، لأن الفحل من الإبل عند اللغويين هو العظيم الخلق (بفتح الحاء) النبيل ويقال استفحل العدو إذا قوي واشتد ، وسمي سهيل فحلاً لاعتزاله النجوم ، وفحول الشعراء هم المغلوبون في الهجاء والمعارضة^(٥١) .

ويذكر الجاحظ أن من يحكم القريض دون الرجز زهيراً والنابعة والأعشى^(٥٢) ، وقد عدّ الأولان من هؤلاء من عبید الشعر الذين كانوا يتكلفون إصلاحه وتنقيحه حتى ليحكث الواحد منهم في بعض القصائد عاماً كاملاً ، فيسميها الحوليات والمقلدات والمحكمات ، « ليصير قائلها فحلاً خنذيذاً وشاعراً مفلقاً »^(٥٣) . فالتجويد والتنقيح إذن طريق الفحولة .

وهكذا يوضع الرجز المثل لطفولة الفن الشعري حيال الفن النبيل المجهود ، فن الفحول ، فهو فن بدائي ارتجالي ، عامي في أكثره ، قريب إلى البداوة موافق لها ، نستطيع أن نعهده غناءً بدائياً يتسم بالخفة والسرعة ، ولهذا حاول كثيرون إخراجه من مملكة الشعر ، مع أنه موزون مقفى دال على معنى ، أي يوافق تعريف قدامة بن جعفر للشعر . ولا شك أن موقف القدماء منه يدل على تطور في مفهوم الشعر ، أو هو على الأقل ينقص رأي الذين عرفوا الشعر تعريفاً حصرياً ، متأثرين بالمنطق اليوناني .

الحواشي

- ١ - سيرة ابن هشام . تحقيق السقا وآخرين . القاهرة (د . ت) ١ / ٤٩٦ .
- ٢ - انظر لسان العرب . مادة رجز .
- ٣ - نفسه .
- ٤ - نفسه .
- ٥ - انظر ابن سلام - طبقات الشعراء . ط . ليدن ١٩١٣ (ص ١٤٨ وما بعدها) . الاغاني . ط . الهيئة المصرية العامة . (٢٩ / ٢٢ - ٣٢) .
- ٦ - انظر الحيوان . تحقيق هارون (٥ / ٣ - ٦) . ومحمد عوفي عبد الرؤوف - بدايات الشعر العربي بين الكم والكيف . القاهرة ١٩٧٦ (ص ١٠) .
- ٧ - انظر بروكلمان - تاريخ الأدب العربي . ترجمة عبد الحليم النجار (ص ٥١) . قارن عبد الرؤوف - نفسه (ص ٧٣) .
- ٨ - العدد (١٨٢ / ١ - ١٨٥) .

- ٩ - قارن بعبد الرؤوف - بدايات (ص ١٠١ - ١٠٢). وراجع رسالة الغفران. تحقيق بنت الشاطئ. دار المعارف بمصر/ ط. السادسة ١٩٧٧ (ص ٣١٨ - ٣٢٠).
- ١٠ - اللسان نفسه.
- ١١ - نفسه. وانظر رسالة الغفران (ص ٥٣٤ - ٥٣٧). وقارن بعبد الرؤوف - نفسه (ص ٦٨) نقلاً عن د. محمد الجندي - الجامع في أخبار أبي العلاء.
- ١٢ - اللسان - نفس المادة.
- ١٣ - قارن عبد الرؤوف - نفسه (ص ٧٣).
- ١٤ - إنظر محمد محمد حسين - الهجاء والهجاؤون في الجاهلية. بيروت ١٩٧١ (ص ٥٦).
- ١٥ - عبد الرؤوف - نفسه (ص ٧٣).
- ١٦ - اللسان نفسه.
- ١٧ - العمدة (١/ ١٨٥) واللسان نفسه.
- ١٨ - قارن عبد الرؤوف - نفسه (ص ١١٤).
- ١٩ - انظر الأغاني. ط. دار الكتب (٣/ ١٧٤ - ١٧٥).
- ٢٠ - اللسان - نفس المادة.
- ٢١ - الأغاني. ط. الهيئة المصرية العامة (٢١/ ٢٩ - ٣٢).
- ٢٢ - العمدة (١/ ١٨٤).
- ٢٣ - ابن هشام (١/ ٢٧٠).
- ٢٤ - انظر اللسان - نفس المادة.
- ٢٥ - الشعر والشعراء. ط. دار الثقافة. بيروت. (ص ٥١١).
- ٢٦ - الأغاني. ط. الهيئة. (٢١/ ٢٩).
- ٢٧ - العمدة (١/ ١٨٢ - ١٨٥).
- ٢٨ - نفسه (١/ ١٨٨).
- ٢٩ - اللسان - نفسه.
- ٣٠ - العمدة (١/ ١٨٥).
- ٣١ - اللسان مادة قصد.
- ٣٢ - نفسه مادة رجز.
- ٣٣ - الأغاني. ط. الهيئة (٢٠/ ٣٥١ - ٣٥٢).
- ٣٤ - إعجاز القرآن. تحقيق أحمد صقر. دار المعارف بمصر (ص ٥٥).
- ٣٥ - إنظر المرزباني - الموشح. تحقيق البجاري. القاهرة ١٩٦٥ (ص ٣٣٣).
- ٣٦ - قارن إحسان عباس - تاريخ النقد الأدبي عند العرب. نقد الشعر. دار الثقافة بيروت. ١٩٧٨ (ص ٣٨٨). عن رسالة الغفران. وقارن عبد الرؤوف - بدايات (ص ١٠٢ - ١٠٤ - ١٠٥).
- ٣٧ - إنظر رسالة الغفران (ص ٣٧٥)، وعبد الرؤوف - نفسه (١٠٥، ١٠٦).
- ٣٨ - البيان والتبيين. تحقيق هارون (٤/ ٨٤).
- ٣٩ - انظر شرح ديوان الحماسة. (١/ ١٩).
- ٤٠ - اللسان - مادة رجز.
- ٤١ - إعجاز القرآن (ص ٥٤ - ٥٥).
- ٤٢ - العمدة (١/ ١٨٥ - ١٨٦).
- ٤٣ - نفسه (١٨٩).
- ٤٤ - الأغاني دار الكتب (٣/ ١٧٤ - ١٧٥)، والموشح (٥٦٦ - ٥٦٧).

-
- ٤٥ - انظر محمد عبد الرؤوف - بدايات . (ص ١٣١ - ١٣٢).
 - ٤٦ - نفسه (ص ١٠٨ - ١٠٩).
 - ٤٧ - قارن باللسان - مادة قصد .
 - ٤٨ - انظر اللسان - مادة فعل .
 - ٤٩ - البيان والتبيين (٨٤/٤).
 - ٥٠ - الحيوان (٥/٣ - ٦).